شيء من الخيال

بقلم غسان سلامة

يفترض ان يكون الكويتيون، مثلهم مثل اللبنانيين حتى فترة قصيرة من الزمن، قد ادركوا ان بلادهم ليست جزيرة في عرض المحيط، وبالتالي انها واقعة بين جيران اقوياء الساعد. وان لم يكف انكبابهم على الجغرافيا لاستيعاب هذه البديهية، فان مراجعتهم للتاريخ قد تسعف. اذ لم تنج الكويت من غزوة "الاخوان" الوهابيين عام ١٩٢٠ الا لقاء تخليها في مؤتمر العقير عما يقارب ثلثي ارضها، وما نجت من غزوة صدام عام ١٩٩٠ الا وقد تخلّت عمّا يفوق الثلثين من سيادتها واستقلال قرارها. تلك هي مأساة الدول الصغيرة والمحاطة بمن هو اعظم منها قدرة. وهي مأساة يعلم عنها اللبنانيون والكويتيون، والبوسنيون والكمبوديون، والبولونيون والهايتيون وغيرهم، ما يكفي لملء الذاكرة بالمخاوف والتوجس.

ليست الكويت جزيرة، وهي لذلك خسرت مئات الرجال في معركة الجمراء الشهيرة ضد "الاخوان"، واستجارت بالعالم كله ضد عبد الكريم قاسم، وتحولت ساحة للمتفجرات الايرانية الايحاء ان لم يكن المصدر في الثمانينات قبل ان تصبح في مطلع هذا العقد هدفاً لعمل عسكري وخيم النتائج على المعتدي والضحية على السواء. وقد تكون الكويت تعلّمت من محنها المتكررة، التي لا يمكن عائدات النفط، ولو عظمت، ان تبلسم جروحها المفتوحة، بان اول واجبات الدول الصغيرة هو البقاء على قيد الحياة، في محيط لا يخلو من الجشع والعدوانية.

سر البقاء حية، وجدته الكويت احياناً بالاستجارة بالبعيد ضد القريب، ولا ريب انه كان نافعاً: فبريطانيا انقذت الكويت من "الاخوان"، ثم من قاسم، واميركا انقذتها من صدام حسين. والاحتماء بالقطب الدولي ضد المحيط الاقليمي قاعدة طبقتها الدول المهددة باستمرار، ويعلم اللبنانيون بالذات عنها الكثير. غير انه لهذه القاعدة ثمن، لأن الدول الكبرى لا تهب للدفاع عن الصغرى مقابل لا شيء، وبالتالي ندر ان اسعفت دولة صغيرة دون ان تتخلى عن ارض او مال او سيادة. ثم ان لهذه القاعدة استثناءات لا تحصى، فقد يستجير وطن مهدد ولا يلقى صدى لتضرعاته، وعن هذا الفشل في استثارة الاهتمام الدولي، يمكن اللبنانيين ان يخبروا الكويتيين الكثير الكثير، حتى لو شمت اهل الكويت بأهل لبنان

- التتمة في الصفحة ١٨ -

٩٧/١٠/٤

◄ شيء من الخيال

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

لان عند الاولين نفطاً يستقطب الاهتمام ويسيل اللعاب، لم يشأ باطن الارض ان يهب اللبنانيين مثله.

وقد يشعر الكويتيون عن حق بأن دولتهم قائمة، على الاقل ما دام هناك مخزون من النفط في باطنها. انه شعور مريح ولا شك، ولكنه ايضاً مقلق، اذ يعني ان لا حياة على الارجح لدول النفط الصغيرة بعد نضوب موردها (بعد ٢٠ او ٣٠ عاماً من الآن) او التوصل لبديل من النفط. اما في القريب فهو يعني ببساطة ان بقاء الدول ليس وليد ارادة ابنائها، بل نتيجة وجود موارد طبيعية تحت سطحها. وليست مشاعر كهذه من تلك التي تبنى عليها الاوطان وتهون في سبيلها التضحيات، فالمستوى الاقتصادي فيما يستوعب السياسي والعاطفي ويتحكم فيهما.

واذا كانت الكويت تعيش محنة الدول الصغيرة، فان العراق يمر منذ اعوام بمأساة الدول المنبوذة. ونبذ العراق باتت له آثار على وحدته وتماسكه مع حرمان بغداد تحليق طائراتها في كل اجوائها. وبينما تعمل اللجان الدولية في الترسانة العسكرية العراقية تدميراً، يقاسي العراقيون اهوال اضمحلال الطبقات الوسطى ومعاشرة الفقر اليومية. وليس في المجال السياسي الداخلي العراقي ما يعوّض عن هذا البؤس فالنظام هو هو، على تسلّطه واستئثاره.

وبينما تتلاشى القدرة العسكرية والاقتصادية العراقية، لا يكتفي جيران العراق بتعظيم قدراتهم الذاتية، بل باتوا لا يترددون في التدخل المباشر في داخله، كما نرى من تركيا وايران. وامسى لكل طرف سبب كاف ليمد يده نحو العراق، او ليرسل الدبابات الغازية الى شماله، او الطائرات القاصفة الى شرقه او الصواريخ العابرة الى مختلف انحائه. فان كانت الكويت مهددة دوماً بالزوال، فان العراق بات مهدداً بالتفتت، وهو مرض عضال لحظه عاهله الاول فيصل في نص تاريخي كتبه بيده قبل وفاته، وما زال معناه واجباً حتى اليوم.

اما عموم العرب فهم ايضاً متأذون من هذه الحال المتمادية. لا اقصد القول ان المنازعات العربية والتجاذبات بدأت مع دخول القوات العراقية الى الكويت، فالمسألة اكثر عمقاً وقدماً من هذا وعصر الانقسام بين العرب لم يبدأ في الثاني من آب ١٩٩٠. لكن هذا الانقسام بالذات زاد كثيراً من وهن الجسم السياسي العربي لانه اضرّ بالطرفين معاً، وبالآخرين ايضاً. ويقيني ان من اعتقد انه سيستفيد مما حصل في الخليج بدأ يعود عن تلك الاوهام: "فالتسوية الشاملة" مع اسرائيل حولها نتنياهو سراباً قاحلاً، و"امن الخليج" تحول محمية اميركية مباشرة تضغط على كل الدول المشاطئة دون استثناء. اما "النظام الدولي الجديد" الذي بشّر به جورج بوش خلال ازمة الكويت، فحدث عنه ولا تسل...

ما العمل؟ اذا كانت بغداد ما زالت تعيش على وقع القومية البسماركية الرعناء واوهام الوحدات بالسيف والنار، فمأساتنا كبيرة. واذا كانت الكويت تعتقد فعلاً انها تستطيع الوثوق بالاميركان لتأمين مستقبلها كدولة فمأساتنا مضاعفة. واذا كانت الدول العربية الاخرى تعتقد انها مستفيدة من هذه الحال المتمادية فمأساتنا تمسي بلا حدود.

لكن الازمة العراقية – الاميركية الاخيرة تسمح بقدر من التفاؤل – ومن حق العراق الاعتبار انه لم يخرج مهزوماً من تلك المواجهة (التي ما انتهت بعد)، انما من واجبه ايضاً الاعتراف بأن ما حققه من نقاط في ساح الدبلوماسية الدولية ما كان ممكناً لولا موقف عربي شبه جماعي انتقد الضربة العسكرية الاميركية المقررة ضد العراق قبل حصولها، بل اتخذ من العراق مواقف تتراوح بين شهامة الشيخ زايد بن سلطان وبعد نظره وواقعية الشيخ صباح الاحمد واقترابه التدريجي من موقف عربي وسطي.

وينبغي الآن على كل الاطراف المعنية، واساساً على بغداد والكويت، المبادرة الى تثمير هذا التحول السياسي قبل فوات الاوان. قد لا تكون "المصالحة" التي يتحدث عنها البعض هي الهدف الواقعي، والمشكلة اساساً هي بين دول، وليست بين افراد او عشائر لكي نسعى للتصالح. ولا اثق كثيراً "بصدق الاخوة" بين العرب قاعدة يبنى عليها ليقيني ان "الاقارب عقارب" في معظم الاحيان، انما السعي لتثبيت نوع "من الجوار الحسن" في عنق الخليج يبدو ملحاً وممكناً في الآن معاً.

يتطلب تحقيق هذا الهدف من العراق مبادرات حقيقية:

– فعلى العراق ان يعترف رسمياً بأن غزوه للكويت كان خطأ فادحاً، مهما كانت حجج تلك المرحلة واسبابها وان تكتب الحكومة العراقية للكويتية معتذرة عن ذلك الخطأ ومتعهدة بعدم تكراره. قد تقف الكبرياء العراقية عائقاً امام هكذا مبادرة، وقد يعتبر الكويتيون ان هذا "كلام بكلام"، ولكنهم جميعاً على خطأ، ذلك ان اللحظات الحاسمة من تاريخنا المعاصر ما بنيت الا على مبادرات كهذه، مثل دخول ادیناور كاتدرائية ريس الى جانب ديغول او ركوع ويللي برانت في فرصوفيا معتذراً.

– وعلى العراق ان يتخلى رسمياً عن كل ما يربطه بعقيدة التوحد العربي البسماركي، وعن بعض عناصر الفكر البعثي العتيق القائم على رومانسية التوحد، وواقع التدخل في شؤون الغير هروباً من وطأة التحديات الداخلية.

– وعلى العراق ان يقدم مثلاً كل المعلومات المتوافرة عن الاسرى والمفقودين من اهل الكويت، وان يفتح البلاد امام من يشاء البحث من اللجان الكويتية والعربية والدولية عن آثارهم.

– وعلى العراق ايضا ان يدعو الدول العربية المجاورة، وبالذات الكويت والسعودية، لارسال مندوبين دائمين يقيمون في العراق لمتابعة صناعته العسكرية عن كثب ومراقبة مناوراته الميدانية ومرافقة نمو ترسانته بحيث تتمكن بغداد من تبديد الكثير من المخاوف عن اهدافها ونواياها.

ويقتضي بناء حسن الجوار مبادرات كويتية مقابلة، قد يكون منها:

– ان تعلن الكويت رفضها لأي عمل عسكري جديد ضد العراق ما دام لم يحاول المساس بالاراضي الكويتية، وان تؤكد ان هدفها هو بقاء الكويت لا تدمير العراق ولا حتى استبدال نظامه السياسي بآخر.

– ان توافق الكويت على ترسيم للحدود بين البلدين بما يقنع اهلهما لا وفق ما تقرره لجان دولية تعمل على قاعدة الثأر من العراق والانتقام من شعبه.

– وعلى الكويت ان تقود عملية ارسال وتوزيع المؤن والادوية والمساعدات للشعب العراقي طالما بقي ضحية العقوبات الدولية.

– وعلى الكويت ان تتخلى رسمياً عن التعويضات المالية التي تضمنتها القرارات الدولية ذات الصلة فهي ليست واقعاً بحاجة اليها. وعلى العراق والكويت ان يحوّلا هذه التعويضات لأهداف انسانية وانمائية يتوافق عليها الطرفان في فلسطين ولبنان واليمن والسودان وغيرها من بلاد العرب، ويدفع العراق فعلا ثمن خطأه ولكن لمصلحة من هو بأمسّ الحاجة للدعم.

ما نيل المطالب بالتمني طبعاً، ولكن ما سبق من مقترحات ليس هدفه الا اعمال الخيال في ما يسهم في اعادة الثقة، او بعضها، الى العلاقات بين الدول القائمة، بعيداً عن اوهام الاخوة وعن الحسابات الصغيرة. وليس ما ذكرنا الا امثلة عن مبادرات متبادلة، لا ريب ان هناك غيرها يمكن التفكير فيه وتنظيم تحقيقه.

من يبادر لتحقيق صيرورة ثقة كهذه؟ الطرفان طبعاً، والعراقي اساساً. انما قد يساعد في الامر مبادرة طرف ثالث يرعى مسيرة التفاهم التدريجي ويراقب خطواته، لا عن تطوع مجاني، بل لأن له مصلحة حقيقية في قيام هذا التفاهم. المرشح الطبيعي لهذا الدور هو جامعة الدول العربية، لكن هذا المرشح هو الاكثر تخيباً للآمال، بسبب صمته المريب عن المأساة العراقية، واستتباعه الواضح من قبل دولة المقر، وغيابه الطويل عن اي امر يستدعي القليل من روح المبادرة واعمال الخيال.

مجلس التعاون الخليجي مرشح ولا شك افضل، وخصوصا بعدما تنوعت مواقف الدول الاعضاء فيه وتعددت من الوضع العراقي، كما رأينا من كلام الشيخ زايد، وبعض المبادرات الايجابية من عمان وقطر، وبعض التحول في مواقف السعودية والبحرين ولو على خفر.

لكن المرشح الافضل للمبادرة والمتابعة قد يكون تجمع من ٣ او ٤ دول منبثقة من الدول العربية التي ايدت الكويت بوضوح عام ١٩٩٠، وهي بالتالي تتعالى اليوم عن اي اتهام بالتفاهم او التآمر مع بغداد، دول مثل السعودية والامارات وسوريا ومصر والمغرب، رأت عام ١٩٩٠ ان صد الغزو العراقي شرعي وباتت (او هكذا نأمل) تدرك ان انهاء الحالة المتوترة في شمال الخليج هدف هو ايضا أمسى مقبولا وشرعيا بل وملحاً.

غسان سلامة